الباب الثالث

خلفاء صقر قريش

نتناول في هذا الفصل تاريخاً مليئاً بالأحداث؛ لكننا نركز الحديث حول مواقف حية من هذه الأحداث.

لقد خلف من بعد صقر قريش خلف أضاعوا ما حرص عليه ذلك الأمير العظيم من أمجاد.

وها نحن نمضي خببًا لنطوي صفحات التاريخ ولننظر إلى هذه الأحداث نظرة اعتبار.

أوصى عبدالرحمن بن أمية بالعهد لولديه هشام وسليمان، ولم يلق بالاً إلى أكبر أولاده عبدالله المعروف بالبلنس.

وحين حضرت عبدالرحمن الوفاة أوصى ابنه عبدالله بأن يتولى الخلافة أسرع أخويه في الوصول إلى قرطبة.

وبمشيئة الله وصل هشام قبل سليمان فنفذ عبدالله وصية أبيه، فأدخل أخاه القصر وبايعه بالخلافة.

obeikandl.com

أوجد هذا الوضع بين الأخوين جفوة، وتباعداً وصراعاً، وما إن علم سليمان بما تم لأخيه غضب غضباً عاصفاً، وحشد الحشود وجند الجند وبايعه أهل طليطلة، وزحف إلى قرطبة، لكن جيش سليمان انهزم، فعاد حزيناً إلى طليطلة.

هنا خرج عبدالله -الأخ الأكبر- منضماً إلى المنهزم بطليطلة، وأعلنا خلع طاعة الخليفة، فجهز هشام جنده وزحف على طليطلة، فاضطر الأخوان إلى طلب الأمان على أن يرحلا إلى بلاد المغرب.

بعد ست سنوات -أي سنة ١٧٨ للهجرة- ثار البربر وخرجوا على طاعة هشام، فوجه إليهم جيشاً كثيفاً قضى عليهم.

انطلق هشام إلى الجهاد لنصرة دين الله، فمضى مقاتلاً على رأس جيشه فهزم النصارى سنة ١٧٥ هجرية.

وبعد ذلك بعام واحد انطلق جيش الإسلام يقوده عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث وأحرز أروع الانتصارات في موقعه بين قرقشونة وأربونة، ثم ما لبث هشام أن توفي سنة ١٨٠ للهجرة.

لكن ما يحسب لهشام أنه أدخل المذهب المالكي في الأندلس.

كان هشام محباً لبناء المساجد وتعمير المباني، كما أكمل سقف جامع قرطبة ورمم منارته القديمة.

ونمر سراعاً بعهد الحكم بن هشام الذي تولى عقب وفاة أبيه سنة ١٨٠هـ، وعمره ستة وعشرون عاماً، لقد عهد إليه أبوه دون سائر إخوته، طمع عماه سليمان وعبدالله بالاستيلاء على الحكم حين علما بوفاة أخيهما هشام.

جهز سليمان جيشاً وانقض على الحكم، لكنه انهزم فظفر به الحكم وقتله.

أما عبدالله فجند الأجناد واستولى على حصن وشقة واتجه إلى بلنسية، لكن انتهى نزاعه مع ابن أخيه شرط أن يقيم في بلنسية.

كان الحكم على عزم وصولة وتدبير، جمع السلاح والعتاد، واستكثر من الحشم، وربط الخيول على بابه واتخذ المماليك وسمّاهم الخرس. واستطاع القضاء على ثورتين: ثورة بطليطلة عام ١٨١هـ وثورة الربض بقرطبة عام ١٩٨هـ، وكان دائم الحيلة، واسع المكر.

ولم يُلق الحكم سلاح الجهاد ضد أعداء الله، فها هو يبعث ابنه هشاماً سنه ٨٠٨م على رأس جيش إلى جليقية ويعود مظفراً، كما بعث ابنه

عبدالرحمن في جند كثيف ليلقى جيش لويس بن شارلمان ولينتصر على قواته أعظم انتصار.

وحقق الابن الثالث عبدالله النصر على الفرنجة سنة ٨١٥م في برشلونة.

وتوفي الحكم سنة ٨٢١م بعد أن وطد ملك بني أمية في الأندلس.

أما ولده أبو المطرف عبدالرحمن المعروف في التاريخ الإسلامي بعبدالرحمن الأوسط فقد ولد في طليطلة سنة ٧٩٢م أو ١٧٦هـ.. وقد تولى الخلافة بعد أبيه وهو في سن الثلاثين.

ذلك الولد عبدالرحمن كان شاعراً، وعالماً في الشريعة والفكر الفلسفي، ومن ثم فقد حرص على أن يكون عصره عصر هدوء واستقرار، ولما كثرت الأموال في خزائنه، بنى المنتزهات والقصور، وجلب إليها الماء، وبنى المساجد، وهو أول من ضرب النقود باسمه في قرطبة وأنشأ فيها داراً للسكة.

لكن الهناء لا يدوم؛ فقد طمع عم أبيه عبدالله في الحكم، لكنه مات قبل أن يتحرك للقاء الخليفة الجديد.

ثم قامت فتنة بين اليمنية والمضرية استمرت سبع سنوات من سنة ٢٠٧هـ (٨٢٣م) إلى سنة ٢١٣هـ (٨٢٩م).. واضطر عبدالرحمن إلى هدم

مدينة تدمير التي انبعثت منها الفتنة سنة ٢١٠ للهجرة، وأمر ببناء مدينة مرسية فبنيت سنة ٢١٦هـ (٨٣١م).

وما كاد عبدالرحمن يتنفس الصعداء بانتهاء الفتنة حتى ثار أهل ماردة بقيادة البربري محمود بن عبدالجبار، وانضوى المولدون تحت لواء الثورة وقتلوا حاكم ماردة، واستمرت الثورة ست سنوات كذلك إلى أن استسلمت لعبدالرحمن سنة ٢١٩ للهجرة.

ولقد أغار النورمانديون على لشبونه سنة ٢٢٩هـ (٨٤٤م) لكن أفلح أهلها في صدهم، فانطلقوا إلى أشبيلية، واحتلوا إحدى البلاد وهم في الطريق وسَبُوا ونهبوا، ثم احتلوا أشبيلية وأشعلوا النار في مسجدها.

عبأ عبدالرحمن الجيش وسار على رأسه في جند كثيف واشتبك مع الغزاة في صفر سنة ٢٣٠هـ وانهزم النورمانديون -بأمر الله- وقتل منهم خلق كثير وأحرقت سفنهم.

وسرعان ما نشط الأهالي إلى قتل النورمانديين واغتالوا أميرهم، وعلقوه في جذع نخلة بإشبيلية.

وسجل التاريخ باعتزاز جلاء النورمانديين عن إشبيلية بعد ما يقرب من شهر ونصف.

ونشط عبدالرحمن فأنشأ داراً لصنع السفن بإشبيلية، ومن يومها صارت تلك المدينة الميناء الأول في الأندلس.

ولقد سجل عبدالرحمن اسمه بالفخار لقيامه بغزو ألبه من فج جرنيق، سنة ٢٠٨ للهجرة.

وانقضّت القوة الإسلامية وسجلت أروع فتوحها: غزوة الفتح بعد سنتين، على جيوش أستوريش.

لكن الأحوال لا تدوم، ففي هذا الوقت العصيب توفي عبدالرحمن الأوسط سنة ٢٣٨هـ (٨٥٢م) فخلفه أمراء ضعاف أضعفوا الأندلس ومزقوا وحدته.

وظل الحال على ذلك المنوال إلى أن قيض الله للأندلس بطلاً عظيماً هو عبدالرحمن الناصر.

الفصل الأول

عبدالرحمن الناصر

ذلك رجل قال عنه التاريخ: إنه هو الذي وحد الناس، وجمعهم على كلمة الحب والإخلاص والتفاني والأخوة والعمل الإسلامي.

لقد توفي الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط، أمير الأندلس في ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ (تشرين الأول ٩١٢م)، تاركاً الأندلس ممزقة الأوصال، ولما خلفه حفيده عبدالرحمن بن محمد وكان في الثالثة والعشرين، ألفى الأمور قد وصلت إلى أدنى درجة من الانحدار؛ فقد قتل أبوه قبل مولده بأسابيع سنة ٢٧٧هـ (٨٩٠م).. ونشأ الطفل في كفالة جده عبدالله الذي لاحظ نجابة حفيده وتفوقه في المعارف والعلوم وحفظه للقرآن وهو دون العاشرة، وبراعته في الشعر والنحو والتاريخ، وإتقانه لفنون الفروسية.

وأوصى الجد لحفيده بالخلافة قبل أن يلقى ربه.

وكان أعمامه من الزاهدين في الخلافة لما تجره على متوليها من كوارث. سعى عبدالرحمن إلى تركيز السلطة في يده، وإلى جعل الأندلس قوية موحدة.

obeikandl.com

وبعد أن انقضى شهر على حكمه جهز جيشاً كبيراً للقضاء على الثوار، وفي إحدى الغزوات افتتح نحو ثلاث مئة من الحصون والبروج.

وسارع الأمراء إلى الانضواء تحت لوائه، ومن هؤلاء أحمد بن محمد بن مسلمة أمير إشبيلية سنة ٣٠١هـ (٩١٣م)، وصاحب قرمونة محمد بن إبراهيم بن حجاج.

وقضى عبدالرحمن سنة ٣١٥هـ (٩٢٧م) على بني حفصون الذين اعتنق كبيرهم عمر بن حفصون النصرانية.

ثم توجه عبدالرحمن إلى مدينة بطليوس سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) وافتتحها بعد سنة.

واستطاع بذلك أن يقضي على أعداء الوحدة داخل الأندلس، وكان عليه أن يضرب بيد من حديد على أعداء الوحدة خارج البلاد.

كانت بلاد الأندلس في عهد الناصر عرضة لكثير من الأخطار؛ فقد تربص بها النورمانديون، وطمع فيها العبيديون.

لقد عمل الناصر على إنشاء أسطول قوي يصد غارات الأعداء عن ثغور الأندلس، فنشط إلى بناء السفن والمراكب حتى بلغ عددها في عصره المئتين.

وأمر الناصر فانطلق الأسطول العظيم إلى مضيق جبل طارق ليقطع الإمدادات التي أرسلها العبيديون إلى ابن حفصون من ساحل إفريقية الشمالي.

ووُفّق الأسطول بالاستيلاء على مليلة سنة ٣١٤هـ وعلى سبتة بعد سنوات أربع.

وحرص عبدالرحمن على محاربة العبيديين الذين دأبوا على مناوشته من بلاد المغرب.

لقد طمع العبيديون في غزو الأندلس لنشر مبادئهم في غربي ديار الإسلام كلها.

وأرادوا أن يقسموا العالم الإسلامي إلى:

قسم شرقي يتبع بني العباس.

وقسم غربي يتبع العبيديين.

وكان للعبيديين عيونهم المبثوثة في الأندلس ترقب وتترقب انكشاف عورات المسلمين هناك، ومن أشهر هؤلاء العيون ابن هارون البغدادي وصاحبه ابن حوقل النصيبي.

واشتغل الأول بالعلم في قرطبة، بينما تظاهر الثاني بالتجارة، واصطنع العبيديون الأعوان لهم من أهل قرطبة وغيرهم ومن هؤلاء:

القاضي ابن أبي المنظور.

وابن هانئ الشاعر.

فماذا صنع عبدالرحمن في مواجهة المدّ العبيدي؟

إن الرجل هو الوحيد الذي جعل العبيديين يلزمون الحد ويؤثرون السلامة.

لقد اصطنع عبدالرحمن الحيلة لمواجهة العبيديين في ميدان السياسة وميدان الحرب.

فأسرع يلقب نفسه بالخليفة في ذي القعدة سنة ٣١٦هـ (٩٢٨م) موطداً مركزه داخل الأندلس وخارجها، وكتب رسالةً بذلك الخصوص ووزعها على عماله على الأمصار.

واصطنع الحلفاء من قبائل البربر في بلاد المغرب، فانضم إليه بنو إدريس وملوك زناته.

وانضوى تحت لوائه صاحب المغرب موسى بن أبي العافية، وأمده عبدالرحمن بالمال فغلب على مدينة جراوة.

وبذلك زرع عبدالرحمن الشوكة في ظهر العبيديين في مقر حكمهم الأصلي ومنبت دعوتهم المغرب.

ثم انقض عبدالرحمن على سبتة وطنجة ومليلة بين عامي ٩٢٧م و٩٣١م واستولى عليها.

وبذلك استطاع أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق، ونزع إلى تحصين المدن الثلاث ضد الغزو المحتمل للأندلس.

ثم بعث عبدالرحمن قائده قاسم بن محمد سنة ٣٣٣ هجرية فأخضع بقايا الأدارسة.

وشجع الثائرين على دولة العبيديين من أمثال أبي يزيد مخلد بن كيداد.

ودارت الدائرة على قوات العبيديين البحرية عامي ٣٤٤، ٣٤٥هـ، إذ انقضت قوات العبيديين البحرية بقيادة الحسن بن علي تبغي مدينة المرية. أحرق الحسن سفن الناصر الراسية بالميناء، واستباح رجاله المدينة وسَبُوا كثيراً من أهلها.

فبعث الناصر قائده غالباً ليرد على الهجوم، فأغار في ستين سفينة على سواحل إفريقية ودمر منطقة سوسة.

ثم نشط الخليفة الناصر إلى محالفة أعداء العبيديين، فحالف هوج وي بروفانس ملك إيطاليا، وإمبراطور بيزنطة، ووطد علاقته مع الإخشيديين في مصر، وأُسْقِط في يد العبيديين.

فلم يحسبوا أن يلقاهم عبدالرحمن بكل تلك القوة وذلك الدهاء وسعة الحيلة.

فقد عمد الناصر إلى إرسال فقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الإسماعيلي والقضاء عليه.

وكان من بين أولئك الفقهاء: أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي.

وحين يئس العبيديون من أخذ الأندلس، اتجهوا بأنظارهم وانطلقوا إلى مصر.

أما عن فتوحات الناصر فحدث ولا حرج.

إذ لم يكد ينتهي من وحدة بلاد الأندلس حتى وجه نظره وهمته إلى ممالك شمالي أسبانيا النصرانية.

فبعث جيشاً على رأسه أحمد بن محمد بن أبي عبدة ليلقى جيوش ملك قشتالة، لكن دارت الدائرة على الجيش الإسلامي واستشهد قائده.

فلم يجد الناصر بداً من أن يتولى بنفسه قيادة الجيوش، فخرج على رأس جيش لجب وانطلق إلى حصن قاشتر وما جاوره من حصون فهدمها، ثم سجل نصراً رائعاً على قوات القشتاليين سنة ٣٠٨ للهجرة.

لكن أفلحت الجيوش النصرانية في هزيمة الناصر سنة ٣٢٧ للهجرة قرب مدينة بلد الوليد، فهل استكان الناصر للهزيمة وانسحب من الميدان؟!

كلا، فسرعان ما استرد قواه وهاجم بكل قوة وسجل انتصارات عظيمة اكتسح بها قوات ليون ونبرة حتى أذعن له الملوك ودفعوا له الجزية وهم صاغرون.

فقد وفد عليه بقرطبة رسول الملك أردون الثالث بن ردميرة ملك ليون طالباً الهدنة وذلك سنة ٣٤٤ للهجرة.

وجاءه رسول ملكة ليون سنة ٣٤٧ للهجرة طالباً السلم.

وقبل أن يتوفى الناصر سنة ٣٥٠ للهجرة، ٩٦٢ للميلاد كان قد ترك دولة عزيزة مكينة وقوية.

لكن سبحان الله! لم يحافظ خلفاؤه على قوة الدولة، وأصابها ما أصابها به خلفاء صقر قريش.

وقبل أن نختم حديثنا عن الناصر لابد أن نذكر بعض مآثره، ومن ذلك ما حدث إبان عام ٣٠٢هـ إذ عم القحط الأندلس، وعزّت الأقوات وارتفعت الأسعار.

لقد انطلق الرجل بنفسه يوزع المؤن والصدقات على الناس، ومن ورائه حذا حذوه كبار رجال الدولة.

ولا ينسى التاريخ أن يسجل له بناء مدينة الزهراء شمال غربي قرطبة في سفح جبل العروس؛ وذلك لتكون عاصمة الخلافة الجديدة، وقد بدأ البناء في سنة ٣٢٥ للهجرة، بإشراف ولده وولي عهده الحكم، وحشد لها أمهر الصناع والفنانين من شتى البقاع حتى بغداد والقسطنطينية.

واتخذ الناصر قصراً في العاصمة الجديدة سمي قصر الخلافة، وزوده بالتحف النفيسة والذخائر.

ثم بنى بالزهراء مسجداً عظيماً.

وامتاز عصر الناصر بالرخاء والبذخ، فامتلأت الخزائن بالأموال وكثرت الغنائم وازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة.

وتبوأت مركز الصدارة بينها.

obeikandl.com

وقطعت على العبيديين الطريق إلى الأندلس، فانكسروا يبحثون لهم عن مجد في مصر.

ويكفي أن الناصر كانت تهابه ملوك الفرنجة، ويرسلون إليه السفارات المحملة بالهدايا طامحين إلى الظفر بالسلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

منصور الأندلس

وتمض بنا الأحداث إلى أن نصل إلى خليفة طفل اسمه هشام لقب بالمؤيد بالله. تمت مبايعته وهو دون العاشرة عقب وفاة أبيه الحكم المستنصر بالله في صفر من سنة ٣٦٦ للهجرة، وعين الحاجب محمد بن أبي عامر وصياً عليه، ويذكر التاريخ حكاية طريفة مؤداها أن الحكم قد تجاوز إخوته الثلاثة إلى ابنه فولاّه الخلافة كيلا يُدْبِر الأمر عن دولته(*).

كان ابن أبي عامر من أسرة يمنية، وقد شارك جده عبدالملك المعافري في حملة طارق بن زياد في فتح الأندلس، ثم استقر بنوه في مدينة طُرُّش بعد ذلك.

ولما شب محمد بن أبي عامر عن الطوق عمل نسّاخاً في محل عند باب قصر الخليفة الحكم، وذات يوم طلبت أم هشام من زوجها من يكتب عنها، فدخل محمد بن أبي عامر وكتب فاستحسنت صنعه وذكرته لزوجها فألحقه بخدمته.

(*) الحكاية بتفاصيلها في كتاب ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص٥٨.

obeikandl.com

ثم عهد إليه الحكم بأن يكون وكيلاً لولي العهد هشام، وفي سنة ٣٦١هـ أصبح ابن أبي عامر صاحب شرطة وعهد إليه الحكم بعد أربع سنوات بأخذ البيعة لهشام.

لكن جعفر المصحفي وزير الحكم أخذته الغيرة، وما إن مات الحكم وأغار القشتاليون على قلعة رباح حتى سارع محمد بن أبي عامر ينصح جعفراً بتجريد الجيش للجهاد، فألفى منه أذناً صماء؛ فنشط إلى قيادة الجيش وإعداد السلاح والعتاد وخرج مجاهداً في شهر رجب ٣٦٦ هجرية، فعبر بالقوات نهر تاجه، وافتتح ربضة وغنم غنائم كثيرة، ثم رجع إلى قرطبة فاحتفى به أهلها وأخلص له الجند لشجاعته وكرم معشره، فسعى إلى الخلاص من جعفر المصحفي.

وسرعان ما صدر أمر الخليفة بعزل المصحفي، وتقليد الوزارة لابن أبي عامر وتعلل ابن أبي عامر بأن جعفراً كان يحتكر الأموال لنفسه، ويوزع المناصب على ذوي القربى.

سعى ابن أبي عامر للاستيلاء على السلطة والقبض على أعنة الأمور، فأصهر إلى غالب الناصري صاحب مدينة سالم وفارس الأندلس الذي لا يبارى، ولما تم العقد سنة ٣٦٧ للهجرة خرج وصهره في صفر من العام نفسه

وافتتحا حصن رنيق، واستوليا على أرباض سلمنقة، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة فاحتفى به الخليفة وقلّده منصب ذي الوزارتين، أما غالب فتولى الحجابة.

ولم يلبث الخليفة أن عزل المصحفي عن الحجابة، وقبض عليه وولده وسجنهما، وبيع قصر المصحفي في الرصافة، ثم لقي المصحفي حتفه في الحبس، وخلا الجو لابن أبي عامر.

هنا كشر ابن أبي عامر عن أنياب الغدر، فحجر على الخليفة واستبد بالأمر، وسانده البربر فاتخذهم جنوداً مع الصقالبة، وقادهم فأوغل في بلاد جليقية وبث الذعر في نفوس أعدائه.

وهزم ردمير الثالث سنة ٣٧١ للهجرة (٩٨١ للميلاد)، وأسرع إلى طليطلة وانعقد له لواء النصر على جيوش الحلف النصراني المؤلف من ردمير وملك قشتالة وملك بنبلونة، وكان هذا النصر المبين في رويدة في العام نفسه.

وحين عاد إلى قرطبة ظافراً تسمى بالمنصور.

أكل الحسد قلب غالب حين شاهد ما وصل إليه زوج ابنته المنصور، فنشط إلى ملوك النصارى يستنفرهم على صهره، لكن المنصور أفلح في القضاء على المؤامرة وانتصر على الأعداء، ثم انتهى الأمر بمقتل غالب.

وأصبح ابن أبي عامر سيد البلاد، وجلس على سرير الملك ومحا رسوم الخلافة.

وللمنصور أيادٍ كثيرة في إصلاح أحوال الناس بالأندلس؛ إذ أنشأ قنطرة بقرطبة على نهر الوادي الكبير في عام ٣٧٨ للهجرة (٩٨٨ ميلادية)، واختتم المنصور حياته غازياً في أرض جليقية، بعد أن زاد في عمارة جامع قرطبة سنة ٣٧٧ للهجرة (٩٨٧ للميلاد)، وبنى قصر الزاهرة على نهر قرطبة، وقام بأعظم غزواته المعروفة بغزوة جربيرة سنة ٣٩٠هـ (٩٩٩م)، حيث اقتحم قشتالة واشتبك مع القوات المتحالفة في قتال شديد انعقد له فيه لواء النصر.

ولما توفي المنصور بن أبي عامر دفن في قصره بمدينة سالم وذلك في رمضان من سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) رحم الله منصور الأندلس لما قدم من أياد بيض للإسلام وأهله.

لن نقف طويلاً عند خلفاء المنصور، وسنمضي لنسجل اللقطات المؤثرة في تاريخ الأندلس، تلك اللقطات الحية التي تعيها ذاكرتنا مما علق بها من غصن الأندلس الرطيب.

لقد تنفس الخليفة هشام الصعداء بوفاة المنصور بن أبي عامر، وأرسل

فاستدعى أبا مروان عبدالملك بن المنصور ونصبّه مكان أبيه وأوعز إليه بالقضاء على حركة الصقالبة ففعل، ونفى بعضهم إلى سبتة، وتلقب بالمظفر سيف الدولة، وسعى إلى إصلاح أحوال الناس؛ فأقام العدل وحمى الشريعة، واصطنع البربر واتخذهم له جنوداً، وظل عبدالملك في منصبه إلى أن توفي في صفر سنة ٣٩٩هـ.

ولعبد الملك جولات وغزوات ضد الفرنجة؛ ففي عام ٣٩٤هـ قام ضد شانجة وأوغل في أرضه، فاضطر شانجة إلى السعي إلى السلام ووفد على قرطبة.

وهدم عبدالملك حصن قلونية، واضطر إلى غزو قشتالة عام ٣٩٨هـ، وكانت آخر غزواته هي غزوة العلة، وقد مات بعدها.

وما إن توفي عبدالملك حتى خلفه أخوه عبدالرحمن بن المنصور الملقب بشنجول، وكانت أمه ابنة لملك بنبلونة ولذلك لقب بشنجول وهو مأخوذ من شانجة.

لكن شنجول كان قد ركبه الغرور، فأسرف في إنفاق أموال الدولة وكرهه الناس لاستعلائه عليهم، مما عجل بنهاية دولة بني عامر، لقد طمح إلى الخلافة، وأراد من هشام أن يعهد إليه بولاية العهد، بل لقد تخطى

الخليفة ذاته وولّى ابنه عبدالعزيز الحجابة ولقبه بسيف الدولة، وانصرف إلى الشراب والانغماس في الشهوات، وصارت بطانته من سفلة القوم، فثار أهل الأندلس، وانضم إليهم جنده من البربر، وسرعان ما قبضوا عليه وقتلوه.

وانطلقت الفتنة من عقالها في الأندلس، وملأت الأرجاء.

وحين مات شنجول بحث الصقالبة عمن يصلح للخلافة، فلم يجدوا إلا محمد بن هشام بن عبدالجبار.

كان ابن عبدالجبار يتميز بالبأس والقوة، ولقد بويع سراً بمؤازرة الذلفاء أم عبدالملك بن أبي عامر، وحظية المنصور، واستطاع محمد بن عبدالجبار الوثوب على العرش، وتنازل له هشام المؤيد عن الخلافة، فتلقب الخليفة الجديد بالمهدي.

كان اعتماد المهدي على أراذل العامة واستهان بالجند، وسرعان ما قلب له الجند ظهر المجن وكان معظمهم من البربر، فجمعوا شتاتهم وكانوا معارضة لسياسة ابن عبدالجبار.

لكن ابن عبدالجبار سلّط العامة على البربر فوقعت فتنة كبرى راح فيها خلق كثير من البربر، ففارق بقيتهم قرطبة، وظاهروا سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر على الخليفة، وبايعوا سليمان بالخلافة في شعبان ٣٩٩هـ

ولقبوه بالمستعين بالله، ولم يلبث جيش البربر أن انطلق إلى قرطبة وهزم جيش ابن عبدالجبار في ربيع الأول ٤٠٠ للهجرة.

ودارت الدائرة على ابن عبدالجبار حين اقتحم البربر أسوار قرطبة وهزموا جيش قرطبة هزيمة شنيعة، واضطر ابن عبدالجبار إلى الفرار ليلاً إلى طليطلة في جمادى الأولى من السنة نفسها.

وها هو المستعين يدخل قصر قرطبة ويبايعه القرطبيون بالخلافة، لكنه يتباهى بانتصاره على أهل قرطبة فتنصرف عنه النفوس، فيغادر قرطبة بقوته من البربر إلى مدينة الزهراء، ثم يرحل إلى طليطلة حتى يظفر بالمهدي، بيد أن أهلها يرفضون تسليمه، فيسرع إلى النصارى بحلفهم العتيد، ويعرض أن يساعدوه نظير أن يترك لهم مدينة سالم.

وهاهم النصارى يبادرون فيدخلون مدينة سالم ويحولون مسجدها إلى كنيسة.

لكن يفلح أهالي طليطلة في هزيمة جند سليمان وقتل أعداد هائلة من النصارى.

ثم دخل ابن عبدالجبار قرطبة وأخذ البيعة لنفسه؛ لكنه هُزِم بالقرب من الرندة.

واستولى البربر على جبل ببشتر وأغاروا على قرطبة، وانقلبت النفوس على ابن عبدالجبار وتم قتله في ذي الحجة سنة ٤٠٠ للهجرة.

أعيد هشام للخلافة في ظل ازدياد قوة البربر، الذين دخلوا مدينة الزهراء سنة ٤٠١ وقتلوا جندها وفرضوا الحصار على قرطبة.

ثم انطلقوا إلى أرباض المدينة واقتحموها عنوة، ثم دخل سليمان قصر قرطبة في شوال سنة ٤٠٣ للهجرة، وبعدها انتقل إلى مدينة الزهراء.

أرسل بعض بني عامر إلى علي بن حمود أمير سبتة بوثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد فيها عهده لعلي بن حمود بالأمر من بعده.

وانطلق علي بن حمود بجيشه فهزم جيش سليمان، ودخل علي بن حمود قصر قرطبة في المحرم من سنة ٤٠٧هـ وضرب عنق سليمان وعنق أبيه وأخيه.

بويع لعلي بن حمود سنة ٤٠٧ للهجرة ولقب بالناصر لدين الله، وسار سيرة العدل فأحبه أهل قرطبة، لكنه قتل في حمام قصره بعد أربع سنوات على يد بعض خدمه من صقالبة بني مروان، فخلفه أخوه القاسم لكنه مال إلى البربر فسيطروا عليه وكرهه الناس، وانتهز ابنا أخيه الفرصة وزحفا على

قرطبة، ففر القاسم، ودخل يحيى بن علي قرطبة فبايعه أهلها بالخلافة سنة ٤١٢هـ ولقب بالمعتلي بالله.

لكن القاسم عاد مرة أخرى إلى قرطبة بعد عام، ولم يلبث أهل قرطبة أن ثاروا وقاتلوا البربر، واضطر القاسم إلى الفرار إلى إشبيلية لكن أهلها طردوه واختاروا القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد للخلافة، ولم يلبث أهل قرطبة أن عهدوا بأمرهم إلى عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار ولقبوه بالمستظهر بالله.

وتتوالى الفتن، إذ يتسلق ثوار قرطبة الأسوار ويقتادون الخليفة إلى محمد ابن عبدالرحمن بن عبيدالله الناصر فيقتله بعد أن يعهدوا إليه بالخلافة سنة ٤١٤ للهجرة ويلقبوه بالمستعلي بالله.

وهكذا، أصبحت قرطبة بحيرة من الدم.

ولم يطل الأمر بمحمد المستعلي بالله، فقد لقي مصرعه سنة ٤١٦هـ واستعاد يحيى عرشه، إلى أن قتل على يد رجال ابن عبّاد سنة ٤٢٧هـ.

وظل ذلك حال الأندلس، إلى أن قيض لها الله رجلاً مجاهداً هو محمد ابن يوسف بن هود سليل أمراء سرقسطة ليلم الشعث، ويرأب الصدع.

لقد أقبل هذا الرجل أوائل القرن السابع الهجري إلى شرقي الأندلس،

كان سلطان الموحدين قد بدأ في الضعف، فأفلح ابن الأحمر في انتزاع مرسية من الموحدين سنة ٦٢٥ هجرية، وأخذ على عاتقه تحرير الأندلس منهم ومن النصارى(*).

وها هو ينشط فينتزع غرناطة بعد أعوام ثلاثة، لكن النصارى غزوا قرطبة واستولوا عليها سنة ٦٣٣هـ، وبعد عامين توفي ابن هود.

لكن لم يطل الوقت فظهر رجل كله همة ونشاط هو محمد بن يوسف ابن نصر المعروف في التاريخ بابن الأحمر، من سادة حصن أرغونة.

لقد انضوى هذا الرجل تحت لواء ابن هود إلى أن توفي، فسارع ابن الأحمر بالاستيلاء على المرية، ثم دخل غرناطة في أواخر رمضان عام ٦٣٥هـ وجعلها مقر حكمه وقاعدة سلطانه.

وبذلك ظهرت مملكة غرناطة العظيمة لتكون حاضرة بلاد الأندلس، ومن هنا سعى فرديناند الثالث ملك قشتالة لإزاحة ابن الأحمر، فعمد إلى حصن أرجونة واستولى عليه، ثم حاصر بقواته غرناطة سنة ٦٤٢هـ فلم يفلح في اقتحامها، ثم آثر ابن الأحمر مهادنه ملك قشتالة إلى حين فصالحه على أداء جزية سنوية لقشتالة.

(*) سنخصص الكتاب السادس من السلسة للمرابطين والموحدين بإذن الله.

obeikandl.com

وفي سنة ٦٦٠ هـ جمع ابن الأحمر حشود الإسلام وكبد القشتاليين خسائر فادحة بهزيمتهم وردهم مدحورين عن مملكته.

ويرجع المؤرخون اتخاذ الرجل لقبه ابن الأحمر لإنشائه حصن الحمراء وجعله دار ملكه.

وحين لقي ابن الأحمر ربه سنة ٦٧١هـ كانت دولته ركينة الأساس، واستطاعت أن تبقى في وجه العواصف والطامعين صامدة قوية لا تهتز مدة قرنين ونصف القرن من الزمان.

obeikandl.com